زكّا العشار ... جئتُ لأطلب وأخلّص ما كان هالكاً

الاب يوسف عتيشا

الاحد الاول من ايليا

ولمّا دخل يسوعُ اريحا واجتاز فيها إذا برجُل اسمُهُ زكا كان غنياً ورئيساً على العشّارين وكان يُحبُّ أن يرى يسوعَ من هو ، ولم يكن يقدرُ من الجمعِ لأنهُ كان قصيرَ القامة ، فأسرع وسبق يسوعَ وصعد إلى جُمَّيزة لينظُرهُ ، لأنهُ كان مزمعاً أن يجتاز بها . فلمّا انتهى يسوعُ إلى ذلك الموضع ، رآهُ فقال لهُ : «أسرِع انزلْ يا زكا ، فاليوم ينبغي لي ان اكون في بيتك» . فأسرع ونزلَ وقبلهُ فرحاً . فلمّا رأى جميعهم ذلك طفقوا يتذمَّرون قائلين : « إنهُ دخل فحلَّ عند رجُلٍ خاطىء ». فوقف زكا وقال ليسوع : «ها انذا يا ربُّ أعطي المساكين نصف أموالي ، وكلُّ من قد غبنتُهُ في شيء ، أردُّ له الواحدَ أربعة أضعاف » . فقال لهُ يسوعُ : «اليومَ صار الخلاصُ لهذا البيت ، لأنَّ هذا ايضاً ابنُ ابراهيم ، لان ابن البشر إنما جاءَ ليطلُبَ ويُخلِّصَ ما كان هالكاً».

(لوقا ١٩ / ١-١٠)

المدينة الواطئة

مدينة اريحا غريبة في موقعها ، تقع في أوطأ منطقة من سطح الارض (٣٠٠ كم تحت سطح البحر) . ومتى يعيش الناس في هذا المستوى ، يرغبون في الصعود الى الاعلى حين يقررون التنقل من مكانهم ؛ هكذا كان زكا يحاول الانطلاق من مكانه «الواطىء» نحو الاعلى.

واريحـــا ايضا هي المدينة العريقة في حضارتها ، اقدم مدينة في تاريخ الحضارة البشرية ، ولا تزال تحتفظ بآثارها التي تصل الى القرن الثامن قبل المسيح . وكانت هذه المدينة المحطة الاخيرة للحجاج الصاعدين الى اورشليم . انه صعود شاق يقوم به يسوع في آخر ايامه ، وينتقل منها الى جبل الجلجلة في الايام المقبلة.

ودون ان ننسى اريحا في موقعها ، نصغي الى صحيفة من انجيل لوقا . وكعادته المألوفة يتحفنا بقصة رائعة ولذيذة نطالعها معاً في تقديم الانجيل بحسب مراحل السنة الطقسية في الاحد الاول من سابوع ايليا ، الذي يقع في هذه السنة في الاول من شهر ايلول ، وهو زمن التوبة استعدادا لمجيء المسيح الثاني في آخر الازمنة.

زكـــا رجل محروم

يكشف لنا لوقا ان هذا الرجل رئيس العشارين واسمه زكا ومعناه النقي الطاهر . اليس على سبيل الفكاهة ان يكون العشار والسارق نقياً ؟ هذا الاسم لا يليق به ، وهو خاطىء بفعل وظيفته ، وخائن لربه ، وخائن تجاه شعبه ، زكا الرجل المحروم الذي ترفض الجماعة ان تتعامل معه . انه عشار ، عميل للمستعمر الروماني المقيت . لقد افسد حب المال هذا الرجل ، وارتكب فضائح من اللاعدالة بحق الفقراء والمساكين.

ويا للغرابة ، في بيت هذا الرجل ، ينزل يسوع وظل صوت الناس يصل الى اذنيه : «انه دخل فحلَّ عند رجل خاطىء» (لوقا ٧/١٩) . وهنا نفهم اتهام اليهود الاتقياء ليسوع بأنه يتعامل مع هذه الفئة الخاطئة في اسـرائيل . ان تصـرف يسوع هذا يشكل خطراً على المجتمع الذي رفض حتى التحية لهؤلاء الخطأة . فكيف لا يرفض الاكل معهم؟

الرجل قصير القامة

نتابع قراءة هذه القصة ، وفي كل سطر فيها نكتشف دور الرموز التي يدعها فيها المؤلف . وكان زكا قصير القامة ، اقصر من يرى المسيح ، والجمهور المعادي لا يترك له المجال للرؤية التي يتوق ان يحظى بها ، وعليه ان يصعد شجرة الجميزة اضطرارياً وكما يصعد يسوع الصليب لرؤية كل البشر من امثال زكا . هذا التفسير الرمزي لا ينتزع شيئا من تاريخية هذه التفاصيل الواقعية التي يسردها لنا لوقا الانجيلي . وبعد خمسين سنة ، يكتب لوقا انجيله ، كان الناس يتحدثون عن حدث اهتداء زكا العشار .

عند اجتياز المدينة رأى يسوع زكا جاثماً فوق الشجرة . فبادره بالكلام : «أسرع أنزل يا زكى ، فاليومَ ينبغي لي أن اكون في بيتك» (٥/١٩). اتخذ يسوع المبادرة في هذه الحقبة المنظورة من الاهتداء ، وتقبل كعادته خدمة ، ليجعل منها مناسبة عطاء ملوكي تقدمه نعمته . فنزل زكا مسرعاً واستقبله فرحا (٦/١٩).

ووصل الشك الى الذروة ، لم يقرر يسوع ان يأكل في بيت العشار حسب ، بل اراد ايضاً ان يقيم عنده بعض الوقت .

اهتداء غير متوقع

وعلى بعد عشرين كيلومتراً من اورشليم ، وفي هذه المرحلة الصارمة المتبقية والتي على يسوع ان يقوم بها ، ينجح يسوع في ان يُعلَن مخلصا ، عندما يهتف زكا «ها ءنذا يا ربُّ أُعطي المساكين نصفَ أموالي ، وكُـلُّ مَنْ قد غَبَنتُهُ في شيء ، أَرُدُّ لهُ الواحدَ أربعةَ أضعاف» (٦/١٩).

فأتم زكا توبة علنية عبّرت عما في قلبه من بساطة وسخاء ، فكانت نظرة يسوع الخالية من كل عتاب ، خارقة في مفعولها. انها نظرة تنفذ الى الاعماق وتفجر النور الالهي الذي يقيم فيه.

هكذا صار منزل زكا ، الانسان غير المستحق ، مقراً للكنيسة شعب الله ، تحتفل فيه بليتورجيا الرحمة والمصالحة.

فمن يمنع زكا العشار التائب ان يجلس قرب يسوع خلال مأدبة وضعت في الحال ؟

لقد اختار الطقس الكلداني هذا النص ليُقـرأ على مسامع المؤمنين في حقبة من السنة تسمى سابوع ايليا ، وهو الذي يأتي ليهيـىء الطريق لمجيء المسيح الثاني . ومن الذي يمنع كل مؤمن يسمع صوت المسيح من ان يجعل بيته معبداً له .